



## سحاب الكلام

د. فهد العرابي الحارثي

### سيرة أهل الحياة المتوحشة

في حياتي مع الجوع والحب والحرب، المشى عزيز ضياء الكثير من شلون وشجون البيئات الاجتماعية والثقافية التي اجتازها خلال سنوات عمره، وهي السنوات الحافلة بالثير والمنش والجميل والقبيح، أي حياة الروائي والأديب مثله، لابل الفيلسوف الجارح الذي لا يتردد في وصف حياته وحياة الملايين من أمثاله، كما نكرنا في المقالة الماضية، بأنها حياة «تافهة»، وهذا كذلك بمقتضى المفهوم المتداول للحياة غير «التافهة»، بين البسطاء من الناس أي هي الحياة التي «تزينها»، منطومة من البطولات والأمجاد، بل هي حياة من لم يجدوا مداخلهم الى التاريخ، وظلنا نتساءل: أي تاريخ هذا الذي يعنيه عزيز ضياء، فهو نفسه الآن سيكون مادة من المواد المهمة والملفتة لوجه آخر من وجوه التاريخ، وهو بالذات الوجه الذي تجاهله هنا عزيز ضياء.

إن سجل التجارب المرة في حياة عزيز، وحياة من حوله من أهل الحياة المتوحشة، هو سجل حافل وثرى بكل المقاييس، لقد عرف عزيز النيم، الذي يعلق عين الطفل بوجه رجل يراه... فرميا يكون هو الأب الذي تؤكد الأم الشابة أنه عائد الى البيت في الصباح.. ثم تعود فتؤكد أنه عائد في الليل.

وهو عرف الرعب الذي لا يملا القلب فحسب، وإنما يملا الأحلام سنين طويلة من العمر، فقد فتح عزيز عينيه على ماضي الحرب الأولى، ثم الحرب الثانية ثم الحرب.. والحرب.. والليل الرهيب الذي «كلما أطلقت قلعة سلع في المدينة المنورة مدافعها باتجاه العوالي وقبا، اهتزت أركان المنزل الصغير واهتز أيضا القلب الصغير الذي يفجاء دائما قولهم: «انهم يهجمون.. انهم يتقدمون.. انهم يدخلون».

لقد عرف التشرد في الأزقة والشوارع، التي يتساقط على أرضها صرعى التيفوس، والتي تتلاحق في عرضها عربات تجرها البغال وقد امتلأت بجثث الموتى.

لقد عرف الجوع، الذي يظل في رايه أخطر اعداء الإنسان، فهو يعبث في هياكل عظمية لهدف لها سوى نهش انصبتها من الخبز الأسود في نهم رهيب.. الجوع الذي جعل ذلك الخبز المرير الذ وجبة تذوقها في حياته، الجوع الذي عندما كبر وقرا عنه القصص والأساطير راعه أنه عاشها كلها في حياته حقائق دامغة.

لقد عرف المرض الذي كان يهدده بالموت في لحظة، وهو لم يكن يجد من حوله من يسقيه قطرة ماء، أو من يطرد عن فمه المفتوح الملتهب اسراب الذباب. عزيز ضياء هذا عرف أيضا الحب، حتى وهو في مرحلة الطفولة يوم سافرت الحبيبة، ومشى وراء قافلته الطاعة محترق الجوانح، الى أن غابت عن الأنظار، فرجع الى البيت لا يأكل ولا ينام، بل يبكي كما يبكي الكبار!!

هذا العمل الكبير (الكتاب) يهديه عزيز ضياء الى السيدة فاطمة بنت الشيخ أحمد صفا، أمه، والذي يدعوها عزيز نفسه «فعم»، وهو ينشر صورتها، بمفرقتها النصفية، ونظراتها الحادة، في أول هذا الكتاب الذي أهده إليها.

عندما بدأ عزيز ضياء كتابة سيرة حياته مع الجوع والحب والحرب، قال لابنه ضياء. هذه الكلمات يابني «قد تطول، وقد تتلاحق إذا اتيت لي ما يتاح الآن من بعض الوقت نهارا أحيانا، وليلا أحيانا أخرى، وقد تقصر ويقف بها السبيل، وعلى الرغم من إعلانه في نهاية الجزء الثاني منها عن أن هناك جزءا ثالثا سيأتي فإننا نظن أن هذا العمل الكبير قد «وقف به السبيل»، فعلا فقد مات عزيز ضياء، وهو رجل عنا ورجل معه الجزء الثالث من سيرته الذاتية، مالم يكن قد ترك بعض الأوراق التي نتمنى، إن حدث هذا، أن يخرجها أولاده الى النور، فمن حق الثقافة والتاريخ عليهم أن لا يدفنوها مع والدهم، فقيد البلاد الكبير.